والعظمة فقلما يرى منها شيء حتى القصور التي شيدها اسمعيل باشا وانفق عليها الملايين من الجنيهات لم يبنها بحجارة صلبة تقاوي انياب الدهر كما بنى قصور الملوك في اوربا بل بناها بالحجر الكلسي السريع التفتت والاندثار ومع ذلك لم تعنَ الحكومة المصرية بحفظها بل هدمت سراي الجيزة وسراي الاسمعيلية وجُعلت سراي الجزيرة فندقاً كما هُدمت سراي القصر العالي وسراي البرنس ابرهيم والبرنس حسن وستلحق بها سراي البرنس حسين وسراي شبراء اموال تُمثل في صورة ابنية ضخمة كثيرة الزخرفة من الداخل والخارج ولكن لا هيكل لها فاذا لم تهدمها المعاول هدمتها انياب الميكروبات

التشيُّع وقدمهُ

وقفت على مقالة الفاضل الامير شكيب ارسلان في الجزء الاول من المقتطف لسنة ٣٨ تحت عنوان « التشيع ايهما فيهِ اقدم الشام ام العجم » فحفزني ذلك على اعادة الكلام

فاقول غير متناظر ولا معارض : مع ما نقل الفاضل خلاصة مقالتي السابقة في اول كلامهِ الصريحة في معتقدي وهو تأخر ظهور التشيع في العجم ومع ما ورد في كلامي من قولي « فاما بلاد العجم فامرها كما قالهُ » اي متأخر في ظهور التشيع فيها ردّ عليّ واورد شواهد تاريخية كلها تخبر عن ظهور التشيع في غير العجم وعدم ظهور شيء من الدولة العلوية في سوابق الازمنة وعدم شيوع التشيع في العجم شيوعاً رسمياً عمومياً سلطانياً الاّ في زمن الدولة الصفوية . وكل ذلك مما لا انكرهُ ولم ادّعِ خلافهُ

وكيف انكر حبًّا بعد ما شهدت ... بهِ عليّ عدول الدمع والسقم

وغاية مقصودي في مقالتي السابقة انما هو اثبات تقدم التشيع في ايران على عهد الصفوية وان الصفوية ليست مؤسسة للتشيع بل هي مؤسسة لسلطنة ايرانية شيعية امامية ولذا قلت ان كلام جودت باشا والمحبي لا بد فيهِ من تأويل ولعلّ مرادهما بث مذهب التشيع في جميع ايران وجعلهُ مذهباً رسمياً وذكرت ما ذكرت من تقدّم التشيع في ايران على عهد الدولة الصفوية تقدُّماً سلطانياً وغير سلطاني

قال الفاضل المخاطب « والجواب عن ذلك ان التشيع بدأ منذ ايام سيدنا عليّ كرم الله وجههُ فلما وقعت الحرب بينهُ وبين سيدنا معوية انقسم المسلمون حتى الصحابة قسمين »

اقول اما التشيع المصطلح فبدؤهُ عند الشيعة معلوم والشيعة في الاصطلاح هو من شايع

علياً وقدمهُ على غيرهِ ولا حاجة في ذلك الى التفصيل مع انهُ لا موقع له

ثم قال محمد بن اسحق المعروف بابن النديم في فهرستهِ « لما خالف طلحة والزبير علي وابيا الاَّ الطلب بدم عثمان بن عفان وقصدهما علي ليقاتلهما حتى بغيا الى امر الله جل اسمهُ فسمي من اتبعهُ على ذلك الشيعة فكان يقول شيعتي وسماهم الاصفياء : الاولياء : شرطة الخميس : الاصحاب ثم ذكر معنى الشرطة وغيرهُ من الرجاليين لم يذكروا الاَّ شرطة الخميس كما ذكرهُ من غير تعرض لتسمية علي اياهم بالشيعة

واوضح ذلك لما نافى مقصودنا اذ كلامنا فيما استقرَّ عليهِ الاصطلاح وهو الفارق المذهبي

واما افتراق الامة حتى الصحابة الى فرقتين (لا اقول الى شيعي وغيرهِ) فأصل الافتراق انما وقع في عهد الخليفة عثمان واما افتراقهم ايام حرب علي ومعوية فهو الى علوي وعثماني وكثيراً ما كانوا يتميزون عن العلوي بالترابي ولو عبروا عن اتباع علي بالشيعة لكانوا يعبرون عنهم بشيعة علي في قبال شيعة عثمان او شيعة معوية لا بالشيعة المطلقة المعبر بها في الازمان الاخيرة

واول هذا الافتراق كان من حرب الجمل ثم صفين ثم سعى معوية وعمرو بن العاص في الظاهر شورويةً ثم لما افضت الخلافة اليهِ اجتمع خلص اصحابهِ وغيرهم وعمل كلٌّ على شاكلتهِ

قال « وقد وقع هذا الانقسام نفسهُ في الحجاز ثم في الشام التي لم يطبق اهلها على مناواة علي يومئذٍ فكان منهم من بقي على موالاتهِ فلهذا قلنا ان الشام في التشيع اقدم من فارس »

اقول : الموالاة غير التشيع فكم من موالٍ غير متشيع والامة كلهم موالون غير النصاب والخوارج ووقوع هذا الانقسام في الشام بعد الحجاز غير معلوم بل معلوم العدم فان معوية وان كان ابدى صفحتهُ للمخالفة من اول الامر لكن مقدمة الحرب بين العلوية والعثمانية انما اسست من مكة وانجرت الى البصرة واختلاف الناس بين ناهض وقاعد ومستنفر ومثبط وقع في الكوفة قبل وقعة الجمل في امارة ابي موسى الاشعري وقصتهُ معلومة وكان كل اهل الشام اللهمَّ الاَّ القليل من المخرفين عن علي والناس على دين ملوكهم

واما كون الشام اقدم في التشيع من فارس فقد صرحنا في مقالتنا السابقة بانهُ في بلاد العجم متأخر عن غيرها ومع ذلك كلهِ فتاريخ بدئهِ في الشام مجهول

قال « ولم يكن الاسلام في نفسهِ لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى يتبسط فيها مذهب من مذاهبهِ فان لم يكن ثبت الاصل فكيف يثبت الفرع ؟ »

في الاولاد من يطيق الاستلقاء على ظهره ساعات متوالية وهو يناغي ويلعب بيديه بدون ادنى ضجر حتى اذا ما دنا وقت الرضاع بكى وتململ وربما وجد في تيقظ الام ما لا يحتاج معهُ الى البكاء. فهذا الفرق الذي نراهُ في الولدين على ما هو معلوم من مشابهة طباعهما ومطابقة تركيبهما في الاشهر الاولى ليس الاَّ نتيجة التربية فالاول عودتهُ امهُ ان يكون محمولاً وان يأكل في اي وقت وساعة والاخر عودتهُ امهُ ان يكون مستلقياً وان لا يطلب الغذاء الاَّ في اوقات معلومة ذلك لان الاولى كانت اذا بكى طفلها التقمتهُ الثدي فاذا لم تنجح معها هذه الواسطة حملتهُ وجعلت تخطر في المنزل فيصيح وهو لا يسكت الاَّ على الحال التي تعودها في حين ان امَّ الآخر كانت اذا بكى طفلها تبحث عن اسباب بكائهِ فتزيلها فاذا استمرَّ على البكا تركتهُ وشأنهُ الى ان يسكت من نفسهِ فيعلم من ثمَّ او بالخري يتعود على ان الصياح لا يجديهِ فائدة وهكذا يدرج الولد على عادات مكتسبة تجعلهُ يتخلق باخلاق خاصة ويتفرد باميال تميزهُ عن غيرهِ من الاطفال. فاذا كانت تلك العادات حسنة استراح واراح امهُ من عناء كثير وكان لهُ من ذلك استعداد لاكتساب اشرف الخصال وحزم على اتمام اعظم الاعمال. وهذا ما يثبت لنا ان حياة الانسان في دورهِ الاول موكولة لعناية الام ورعايتها فهي التي تبثُّ فيهِ روح المبادىء والطباع بحسب ما توحي اليها فطرتها ومكانتها من الاختبار حتى اذا نما الطفل جسماً وعقلاً نمت فيهِ تلك الاخلاق التي تأسس عليها وتأصلت فيهِ طباع امهِ التي وكلت اليها الطبيعة امر العناية بهِ والاستئثار بتربيتهِ فهي اذن مسؤولة عن سوء اخلاقهِ ممدوحة على حسن طباعهِ ولا يخفى ان الولد كالغصن الرطب تميل بهِ الاهواء كيفما مالت ولهذا يجب الاعتناء بتدبيرهِ وتدريبهِ وتهذيبهِ وتقويمهِ قبل ان يجف ويتصلب. وهو بذلك يختلف عن الحيوان الاعجم الذي لا يحتاج طبعاً الاَّ الى القوت ولا يدرك شيئاً من واجبات التربية سوى ما تدفعهُ اليهِ السليقة من العناية بصغارهِ حتى تبلغ السن الذي تتمكن فيها من اعالة نفسها والاستقلال عن والديها

اما الانسان فانهُ مخلوق ادبي قابل للنمو العقلي كما هو قابل للنمو الجسمي على ان هذا النمو لا يتم من تلقاء نفسهِ بل يلزم لهُ من يعتني بصحتهِ ويقوّم سيرتهُ ويكسبهُ من الصفات الحسنة ما يؤهلهُ للاعمال السامية ويعظم ثقة الناس بهِ ورضاهم عنهُ لانهُ لا غنى للواحد عن الكل بل كلٌّ مفتقر الى ان يكون لهُ علاقة مع بني جنسهِ فاذا لم يكن حاوياً من شروط التهذيب والاستقامة ما يؤهلهُ للدخول بينهم والتعامل معهم سقط وكان ضربة على والديهِ ومصيبة على المجتمع الانساني

البيت الشام اسيراً وماجريات تلك الايام لا سيما لوصح صعود السجّاد المنبر بحضر يزيد وتعداد مفاخر آبائهِ وما جرى على ابيهِ الشهيد كما ذكرهُ موفق الدين خطيب خوارزم في مقتلهِ ونقلهُ بعض الامامية ايضاً

قال « اما التشيع في جبل عامل واطراف لبنان من بلاد الشام فلا تزال الادلة تقوم على كونهِ فيها من لدن الفتح وقد يأتي التاريخ في اثناء سرد الحوادث وتأتي كتب السير والتراجم بما ينبيءُ عن استتابهِ فيها منذ ظهورهِ الى الآن ... » ولم يذكر من الادلة سوى ما ينبيءُ عن كثرة الشيعة في صور في اواخر القرن الخامس

اقول لعل مرادهُ من لدن الفتح هو فتح بلاد الشام والقول بوجود التشيع فيها من ذلك الوقت لعلهُ رجم بالغيب كيف لا والفتح كان في عهد الخليفة الثاني ثم تولى الخلافة عثمان وامر معيبة ثم صارت الدولة اموية سفيانية فمروانية ثم عباسية وكانت تقتل الشيعة تحت كل حجر ومدر والتسمية بعلي او الحسن والحسين ذنباً لا يغفر ويسب علي على المنابر الى زمان عمر بن عبد العزيز فكيف يقال باستتباب امر التشيع في الشام منذ ظهورهِ ومن لدن الفتح . ولا انفي بقولي هذا وجود واحد او بيت من الشيعة في الشام فان ذلك ايضاً رجم بالغيب وشهادة على النفي

واذا قسنا حال الشام بالكوفة وجدنا استتباب التشيع فيها اتم واقوى من الشام . اما في اوائل الامر فقد ذكرنا مزايا الكوفة واما في ثاني الحال فقد خرج من الكوفة جماعة كثيرة من الرواة والاصحاب للامام محمد الباقر واذداد عددهم في زمان ابنهِ الامام جعفر الصادق فبلغ اصحابهُ والرواة عنهُ من بين ثقة وغيرهِ الى ثلاثة الاف ومائة تقريباً الف وخمسمائة منهم من الكوفة وفيهم الفضلاء والفقهاء كمحمد بن مسلم الثقفي الراوي عنهما وكان يقول اروي ثلثين الف حديث عن الباقر وسئلت عن الصادق عن ست عشر الف مسئلة حتى كان بعض فقهاء الكوفة من غير الامامية يدس عليهِ من يسئلهُ عن بعض المسائل . هذا من ذكرهم الشيخ محمد بن الحسن الطوسي في رجالهِ

هذا بخلاف الشام فانهُ لا يوجد منهم راوٍ لحديث من عهد الصادق الى آخر الائمة او من بعد من اصحابهم الا قريب من عشرة رجال لم يوصف اكثرهم الا بانهُ من اصحاب الامام الفلاني ومنهم خليلٌ او خليد بن اوف ابو الربيع الشامي من اصحاب الصادق ولهُ كتاب ذكرهُ الشيخ في رجالهِ وابن حجر في تقريبهِ وقال انهُ متشيع ولم يذكر الشيخ محمد ابن الحسن ابن الحر في كتابهِ امل الآمل الا هذا الرجل وهو معدود من الشعراء الاقدمين

ولم يذكر ايضاً لجبل عامل عالماً او شيخاً لرواية او اجازة في القرون الاولى بل الأقدم منهم هو الشيخ طان بن احمد العالي ويوسف بن حاتم الشامي وهما من رجال القرن السابع

واما ما نقلهُ من وجود الشيعة في صور في التاريخ الذي ذكرهُ فعندنا من الدلائل ما هو اقدم من ذلك فقد الّف العلامة محمد علي بن عثمان الكراجكي المتوفى سنة ٤٤٩ احد فقهاء الامامية ومتكلميها في دمشق لناصر الدولة وفي طرابلس وفي طبرية وفي صور للاخوين سنة ٤١٨ وفي صيداء للاخوين وكتاباً لذخر الدولة كلها على مذهب الامامية بعضها في الفقه وبعضها في الامامة وبعضها في غير ذلك وذكر اسمائها موجب للاطناب

وللسيد المرتضي علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة ٤٣٦ المسائل الطرابلسيات وهي جواب عن مسائل سئلوها من طرابلس واخرى تعرف بالحلبيات وكان القاضي عبد العزيز ابن نحرير صاحب الكتب النفيسة في فقه الامامية احد تلامذة السيد المرتضي والشيخ الطوسي قاضياً في طرابلس مدة عشرين سنة وتوفي سنة ٤٨١

وكان في حلب الشيعة والعلماء واقوال الحلبيين معروفة بين الفقهاء منهم ابو الصلاح تقي الدين الحلبي وكان تلميذ الشيخ الطوسي والسيد المرتضي ومن علمائها المعروفين السيد ابو المكارم حمزة بن زهرة الحسيني المتوفى سنة ٥٨٥ ونقل القاضي نورالله في كتاب مجالس المؤمنين عن تاريخ ابن كثير الشامي انهُ لما اراد صلاح الدين الايوبي تسخير حلب جمع صاحب حلب اهلها ورغبهم في حرب صلاح الدين فعاهدهُ جميعهم في ذلك وشرط عليهم الروافض امورأ منها اعادة حي على خير العمل في الآذان ومنها ان يفوض عقودهم وانكحتهم الى الشريف الطاهر ابي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني الذي كان مقتدى شيعة حلب الخ. وتاريخ فتح صلاح الدين لحلب هو سنة ٥٦٩ وقد وقع سهو للقاضي في تاريخهِ وارخهُ لسنة ٥٠٧ ولعلهُ كان سقط لفظ مئتين من تسخيرهِ والامر في السبع سهل

هذا ما اردنا ذكرهُ بالنسبة الى الشام والكوفة ومصر وخلاصة الامر انهُ لم يثبت لدى الحقير سبقة الشام على الكوفة في التشيع لاسيما في استيعاب الامر وان قال الفاضل المعترض في آخر كلامهِ « فلا يسبق الشام في هذا المعنى تطر الاّ الحجاز ولا يساويها فيهِ الاّ الكوفة » ولم اجد ما يمنعني عن القول بتقدم مصر ثم الكوفة ثم الشام الاّ ان اهل البيت ادرى بما فيهِ ومنهم اتمام الاحسان بالبيان ومنا الشكر والامتنان

واما العجم : فقد ذكرهُ صاحب تاريخ قم وقد الفهُ لصاحب ابن عباد (الموجود من التاريخ المزبور هو ما ترجموهُ بالفارسية وقد ضاع بعض ابوابهِ) ان اول من هاجر الى قم واستوطنها

من العرب عبد الله والاحوص ابنا مالك بن سعد الاشعري هاجرا في زمان الحجاج من الكوفة ووردا قم سنة ٩٥ وكانا من الشيعة الامامية غير كاتمين للتشيع ولا مستترين وارّخ نزولها بغرض قم بالتاريخ الفارسي واليزدجردي والهجري

وما ذكرهُ ياقوت من وجه التسمية وغيره ذكرهُ المؤرخ المزبور ايضاً ولكن لم يرتضِ وجه التسمية وذكر وجهاً اخر وهو اعرف ببلده

ويظهر من كلام ابن الاثير وابن خلدون ان مذهب الكيسانية الفرقة المعروفة من الشيعة كان ظهر في خراسان في اواخر القرن الاول وان ابا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية قد علّ شيعتهُ بالعراق وخراسان ان الامر صائر الى بني العباس وكانت وفاتهُ سنة ١٠٠ او ٩٨

وفي كلام ابن خلدون ايضاً انهُ لما بعث محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ابا محمد زياداً الى خراسان سنة تسع (اي بعد المائة) نهاهُ عن الغالب السابوري شيعة بني فاطمة الخ. ولم اجد ترجمة غالب الاّ انهُ يظهر من كلامهِ هذا انهُ كان في خراسان يومئذٍ شيعة لبني فاطمة وهم غير الكيسانية لانهم كانوا شيعة ابن الحنفية مع ان ابا هاشم اوصى شيعتهُ بمتابعة محمد بن علي وكانوا يتابعونهُ

فظهر من ذلك ان التشيع المصطلح كان نما في خراسان في ذلك الزمان وان لم اقف على ان السابق في ذلك هو قم او خراسان

وقولي سابقاً بانهُ انتشر التشيع في خراسان في اوائل الدعوة العباسية كان مرادي منهُ ما ذكرت من امر التشيع المطلق الاعم من الامامية وغيرها ولم ارد الدولة العلوية اي التي سلطانها علوي وان كان يمكن القول بان دعوة ابي هاشم لو استتب لها الامر لاسست دولة علوية وعلى كل حال كانت دعوة علوية الاّ انها لم تتم ومات ابو هاشم مسموماً ولم يعقب فاوصى الى محمد ابن علي العباسي فانقلبت الدعوة العلوية الى دعوة عباسية

ومع الاغماض عن اولية قم او خراسان في امر التشيع فلا ريب عند الامامية ان اهل قم هم المقدمون في تشييد مذهب الامامية في ايران ولهم من رواة الاخبار واصحاب الائمة من لدن عهد الصادق الى آخر الائمة قريب من تسعين رجلاً فيهم الثقاة المرضيون ومنهم زكريا بن آدم الوارد في حقهِ انهُ المأمون في الدنيا والدين وغيرهُ من ثقات الاصحاب ومنهم سعد بن عبدالله الاشعري الذي كان في عهد العسكري

هذا من اصحاب الائمة واما بعد الغيبة فلم يخرج ولا موقع للاطالة وقد خلَّف المشهورون منهم كالصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١، وبكتبه وكتاب الكافي لثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ وشيخ الطائفة محمد ابن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ تدور رحى مذهب الامامية

وكان مشايخ قم وما والاها من الري ودوريست المعروف يومئذٍ بطرشت مرجعاً للامامية الى ان نبغ المفيد محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العربي في بغداد المتوفى سنة ٤١٣ وارتحل الشيخ الطوسي اليها وتلمذ عندهُ وعند تلميذهِ السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة ٤٣٦ ثم هاجر الى النجف وتلمذ عندهُ جماعة ثم انتقلت الرياسة الى علماء الحلة وصار الشيخ جعفر بن يحيى الحلي المتوفى سنة ٦٧٦ علماً يقصدهُ الناس ثم العلاَّمة الحسن ابن يوسف الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ ويدور تشيع السلطان اولجايتو ثم نبغ الفاضل محمد بن مكي الشهيد المتوفى سنة ٧٨٦ وطار صيتهُ وخدمهُ الملك المؤيد فصارت بلاد جبل عامل تأخذ بالشهرة وعلماؤها بالتقدم ونبغ منهم فضلاء علماء الى ان ظهرت الصفوية فرجعت المركزية الى ايران وبيان تفصيل ذلك تطويل . ولقد نسيت ذكر علماء البحرين وبيدم العليا

وقد علم من مقالتي السابقة ومن مقالتي هذه ان مرادي ذكر بروز التشيع في ايران بروزاً مذهبياً لا ظهوراً سلطانياً كما ان ذلك منتهى ما ادعاهُ واقام عليهِ الدليل الفاضل الخاطب في حق الشام

ولست بمنتقص من فضائل الارض المقدسة وما والاها ومن حولها ولا انكر وجود الفضلاء من غير الامامية في ايران بل لايران مفاخر لا تحصى في هذا الباب مما يؤدي ذكرهُ الى الاطناب او يحمل على التعصب لنجم مع ان المنة لله ولرسوله العربي والائمة الهادين والاصحاب الراشدين الذين هدونا الى الاسلام

هذا جناي وخيارهُ فيهِ وانا معترف بقصر الباع وقصور الاطلاع ولست الاَّ كمن ناضل بقوس بلا وتر واني لكما قال ابن المعتز مصطيحي مكسورة وفطيرتي فيها قصر وانَّى لي والمناظرة مع فرسان هذا الميدان لاسيما مع فاضل يسمى ارسلان

تبريز علي بن موسى